جاهزية الإسلام التطبيقية

إن الخطاب الإسلامي العام الشامل الذي أتى به النبي ﷺ كان خطاباً متكاملاً لا ينقصه شيءٌ بحال، وسبب هذا يرجع إلى أمور تدور على حكمة الله تعالى وكمال تقديره.

والإشارة هنا ليست من جهة الجانب الرباني التشريعي، بل من الجانب التطبيقي ومدى الجاهزية لهذا الدين، فضلاً عن جاهزية الصورة التي جاء بها النبي ﷺ لمواكبة الواقع، وإمكان تطبيق مجريات ما جاء به ﷺ في كل الأزمنة والأمكنة المختلفتين.

وهذا الكمال الذي نحن بصدد الإشارة إلى طرف آليات استعماله وتطبيقه نابعٌ -بعد الكمال التشريعي- من ختامية الرسالة وأن النبوة بمعناها الخاص فضلاً عن الرسالة بمعناها الخاص كذلك قد انتهت.

وأن هذا النبي الخاتم هو الحجة الرسالية الإلهية إلى قيام الساعة، فوجب من جهة الشرعِ والعقل أن تكون صورته التشريعية والتطبيقية هي أكمل ما يكون، حيث أن الأنبياء السابقين قد يكون دورهم أحادي أو جزئي أو إصلاحي لكن بغير شمول؛ أما دور النبي ﷺ فهو دور شامل عام كامل.

وعليه ... فإن الناظر في الدور الذي قام به النبي ﷺ يعلم إعجازيته في الجمع بين أكمل الأخلاق الشخصية وأحكم المواقف السياسية، كل هذا وهو مثقّل بحِمل الوحي، وتطبيق إقامة الدولة والأفراد.

ويظهر من هذه الإشارة الأولية خطأ الفلاسفة الإسلاميين الذين جعلوا النبي كالسياسي المحنك -فقط- الذي أصلح أمور أمته لبراعته العقلية وكماله الأخلاقي، وهذا وإن كان امتداحاً فيما يبدو إلا أنه عجزٌ في النظر ونقص في الاستدلال.

إذ الدور التشريعي الإلهي كنبي -مع اجتهاداته- لم ينفك عن حال النبي ﷺ حتى مماته بأبي هو وأمي ﷺ.

فالحالة المتكاملة المترابطة التي أظهرها النبي ﷺ لم تكن بالحالة المسبوقة، نعم أصل التشريع واحد بين الأنبياء من جهة الدعوة إلى التوحيد ونحوه، إلا أن الصورة التكاملية بين التوحيد الرباني والشرائع المتداخلة حصل بينهما نظم عجيب، وعلى الرغم من القدر التوافقي بين شرائع التوراة وشرائع القرآن إلا أن اختصاصية القرآن بالتداخل المذكور جعل منه مهيمناً وناسخاً.

فالصورة الجامعة لأحكام الشريعة أصولاً وفروعاً مع سياسة الناس وإقامة الدولة المتماسكة لم تكن معهودة وقتها، ولذلك قد أثارت إعجاب العرب والعجم وقتها، وجعلتهم في حالة اضطراب وانبهار.

ولم يكن هذا بين ليلة وضحاها... إذ أن صورة الدولة عند العجم من الروم أو الفرس قد رسمت حياتهم بوجود دولة وسياسة للناس إلا أنها كانت جائرة مضيعة لحقوق رعاياها مستعملة للدين لأكل أموال الناس بغير حق، وهذه الوريقات لا تتسع لبيان حال العوار هذا..

أما العرب الذين كانوا ينظرون للعجم حين تبلغهم أخبارهم بعين الإعجاب والانبهار حيث تبلغهم أخبار القوتين العُظمتين بما لهما من دولة وسياسة وقوة،

فقد كانت تغلب عليهم الحالة القبلية المشتتة للدولة وكيانها، ومجريات حياة الناس وقتها.

فبُعث نبي أمي أعجز الله به أمماً سابقة وحاضرة، إذ أكمل به سبحانه الصورة الرسالية، حيث كانت طريقته ﷺ السياسية والقيادية تحوي كثير تقويم وتهذيبٍ للنفوس والطبائع، مع التعامل بحنكة مع الأحداث السياسية.

فنظرة إلى الجانب الاقتصادي.. تجد أن الممعن في النظر المدقق لأحوال قيام هذه الدولة النبوية الإسلامية سيجد أن طريقته ﷺ في الحكم والقسم بين الناس فيما يتعلق بالمال وغيره تُظهر دولة قامت من فقر مدقع وعوز مُلح إلى حالة من التكافل والتكامل الاجتماعي، بدأها بالمؤاخاة بين المؤمنين وانتهت إلى موارد متعددة لبيت المال المسلمين، وحصول الحالة الاكتفائية، وبين هذا وهذا تظهر كمالية هذا الدين وأفضلية التطبيق النبوي كأحكام الأرض الموات والخراج ونحو ذلك.

ثم نظرة إلى الحالة السياسية الداخلية.. من معاهدات نبوية تنم عن حكمة وحسن تفكر وإدارة كتلك المعقودة مع اليهود والتصالح معهم على أمور يطول ذكرها إلى أن أجلاهم النبي ﷺ لنكث عهودهم على تفصيلات معلومة؛ أما الجمع بين الأوس والخزرج -وما أدراك- بعد ما كان من القبيلتين من التناحر والتدافع الذي لم يظن أحد العرب يوماً أن يجتمعا في صف واحد فهذا عجب منفرد وكمالية أصيلة لا يشك فيها إلا قاصر النظر.

وصلح الحديبية الذي أثار حالة سياسية في المجتمع العربي حيث ترسخ أول إقرار بهذه الدويلة الناشئة للمسلمين، وهذا الإقرار ولّد معنى آخر وصورة مختلفة لتلك

العصابة المؤمنة، إذ جاء الإقرار من ألد أعدائهم وقتها وهم أهل مكة وقبائلها المعادية لهذا الدين وهذه الدولة.

أما الجهاد.. فحدث عنه لا حرج... إذ منذ بدر والنصر المبين، واستجابة الإمام الأكبر ﷺ لشورى بعض أصحابه، مروراً بأُحد المعلّمِة لأصحابه معنى الطاعة للقائد وفقه الاستجابة وعدم المخالفة، وترسيخ لمبدأ الامتثال في المعارك، إلى إعادة تهيئة الصف والاستعداد للمواجهة مرة ثانية وهم مثقلون بالخسائر والجراح ومفجعون بالثكلى والموتى..

حتى غزوة حنين وفقه التعامل مع هؤلاء الذين أصابهم الافتخار بالمادية التي هي العَدد والعتاد، حتى قال النبي القائد "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب.." وذكّرهم بشرفي النبوة والنسب.

أما الحالة الاجتماعية.. فتلك التي تألفت بها قلوب هؤلاء الذين فرقتهم القبلية وأصابهم طغيان الجاهلية قبل إسلامهم، فأحسن ﷺ الجمع بين قلوبهم -بإذن الله تعالى- حيث تعامل مع أعرابهم ومدنيهم، فكانوا على قلب رجل واحد -من بعد تشرذم- يوالون بعضهم ويعادون عدوهم، فقد رشّد ﷺ قوة القوي ووجهه، وشد أزر الضعيف الهزيل وسدده.

ومن تقاربهم جُعلت ذمة أدناهم كذمة أعلاهم فلا فضل لنسب ولا جنس إذ كانوا مسلمين.

وإليك السياسة الخارجية التي أرعبت دولاً سمعوا به ﷺ، فانتصر وهزم وفَتح وفُتح له، فأحسن لأهل مصر، وعفا عن أهل مكة، وعاقب غيرهم...

تلك نبذة وإشارات لها أمثلة لا تحصر وآيات لا تُقهر، من وعاها اهتدى، ومن تغافل عنها تلف وانبرى.

فالمتدبر في تلك الحالة الكمالية للإسلام من جهة التشريع والتطبيق يجد كمالاً قد لا ينظر له كثيرٌ من الباحثين.

وكذلك يُقصّر كثير من المتصدرين في استخدام الصورة الإسلامية لعلاج المجتمع والأفراد، إذ لم يستوعب بعدُ وجه الحكمة الكمالية التي جاء بها النبي ﷺ، وهذا إما جهلاً منهم بنفس الصور أو كما قلنا لعدم استيعاب الصورة الكمالية.

وهذه إشارة مختصرة أردنا بها تحفيز القارئ لينظر في السيرة النبوية بوجهة أخرى غير السردية النمطية التي اعتادها الوعاظ، أو النمطية التي اعتادها بعض طلبة العلم، وليزداد الذين آمنوا يقيناً بما آتاهم الله من شريعة، وليدفع الريب عن الذين أصابهم بعضه.

والله أعلم وصل اللهم وسلم على النبي محمد وآله وأتباعه إلى يوم الدين.

يوم الأحد

25 جمادى الآخرة 1445

7 كانون الثاني (يناير) 2024.

محمود أبوحمْدة